يترشفنَ مِن فمي رشفاتٍ هنَّ فيه احلى من التَّوحيدِ

وان كان له في هذا تأويل ومخرج بجعله التوحيد غاية المثل في الحلاوة بفيه. وقوله:

اذا قلته لم يمتنعْ من وصولهِ جدارٌ مُعلّى او خباءٌ مطنب

فما وجه الخباء المنطب بعد الجدار المنيف؟ بينا هو في الثريا صار في الثرى! وانما اراد الحاضرة والبادية(٩٦٣)».

ومن مميزات شعره التماسك الشديد. والترابط الوثيق. وتسلسل الافكار وتناسقها وتأييدها بالحجج المنطقية والبراهين العقلية. مثل قوله معاتباً سيف الدولة:(٩٦٤)

ياأعدل الناسِ الاّ في معاملتي فيكَ الخصامُ وانت الخصمُ والحكمُ
أعيذُها نظراتٍ منكَ صادقةً أنْ تحسبَ الشحمَ فيمن شحمَه ورَمُ
وما انتفاعُ اخي الدنيا بناظره اذا استوتْ عندهُ الانوار والظُّلَمُ

ويلاحظ انه كان يميل احياناً الى التعقيد. واستخدام الالفاظ الغريبة. والتصرف في اللغة. واستعمال مصطلحات المنطق والفلسفة. واخذ معاني السابقين وصياغتها باسلوبه الخاص(٩٦٥). واللعب بالالفاظ مثل قوله مخاطباً كافوراً الاخشيدي:(٩٦٦)

جرى الخُلْفُ الاّ فيكَ أنكَ واحدٌ وانّكَ ليثٌ والملوكُ ذئابُ
وأنّكَ انْ قُويستَ صُحْفَ قارئٌ ذئاباً ولم يخطيْ فقال ذبابُ

اما موسيقى شعره فكانت رائعاً. وقد جاء ذلك من اختياره الجيد للاوزان والقوافي وملاءمتها للالفاظ والمعاني. الى جانب استخدام بعض الالوان البديعية مثل التصريع والجناس وحسن التقسيم ... فمن شواهد الجناس قوله(٩٦٧):

الشريف الرضي
٣٥٩ ـ ٤٠٦ هـ

القرن الرابع للهجرة ـ على الرغم من اضطراب الأحوال السياسية فيه بعد دخول البويهيين العراق ـ حافل بالحركات العلمية في شتى نواحي المعرفة . زاخر بعدد كبير من العلماء والادباء والفقهاء . زاهر بالمكتبات التي تعج بالكتب في مختلف فنون العلم والأدب والتاريخ والطب والفلسفة .. حتى إن الشريف الرضي الذي سنترجم له في الصفحات الآتية كانت له دار سماها دار العلم . هيأ لها كل مستلزمات الدراسة وأسباب الراحة .

سيرته :

هو أبو الحسن . الشريف الأجل . الملقب بالرضي . محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن ابراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنه . وأمه السيدة فاطمة بنت الحسين بن أحمد بن الحسن الناصر الذي يرجع نسبه الى الامام علي رض الله عنه .

ولد في بغداد بجانب الكرخ سنة ٣٥٩ للهجرة(١٠٥٥) . ونشأ في بيت عزّ وشرف . وفي بيئة علمية وأدبية . وقد توجّه منذ الصغر مع أخيه الشريف المرتضى نحو التعلّم والتثقّف . وتتلمذ على أساتذة أجلاء كثيرين في مختلف العلوم(١٠٥٦) . من ابرزهم ابو سعيد السيرافي النحوي المشهور . وأبو الفتح عثمان بن جني اللغوي النحوي . وأبو علي الحسن بن أحمد النحوي . وأبو اسحاق ابراهيم بن أحمد الطبري الفقيه المالكي . ومحمد بن عمران المرزباني . والشيخ المفيد ابو عبد الله محمد بن محمد المعروف بابن المعلم . وابن نُباتة الفارقي ...

شبّ الشريف الرضي عالماً شاعراً . طموحاً الى المجد . نزّاعاً الى العُلى . والقارىء في شعره يلمس ذلك بوضوح . مثل قوله(١٠٥٧) :

(١٠٥٥) المحمدون من الشعراء ص ٢٤٤ .

(١٠٥٦) الغدير ٤ : ١٨٢ ـ ١٨٥ . الحماسة في شعر الشريف الرضي ٨٢ ـ ٨٦ .

(١٠٥٧) ديوانه ١ : ٢٥٤ .

لا هَمُّ قلبي بركوبِ العُلى ... يوماً ولا بلَّ يَدَيَّ السَّماحْ
إنْ لم أنلْها باشتراطٍ كما ... شئتُ على بيضِ الظُّبا واقتراحْ
أفوزُ منها باللُّبابِ الذي ... يُغنيي الأمانيي نيلُهُ والصُراحْ
لابدَّ أن أركبها صعبةً ... وَقَاحةً تحتَ غُلامٍ وَقَاحْ

ولعله كان يبغي الرئاسة لينقذ أمّته من السقوط في الهاوية ولا سيما بعد أن هان أمر الخلفاء العباسيين وأصبحوا لعبةً بيد الأعاجم . ها هو ذا يصرح بملء فمه عن نيته فيقول(١٠٥٨) :

سأخطبها بحدِّ السَّيفِ فعلاً ... إذا لم يُغْنِ قولٌ أو خِطابْ
وآخُذُها وإنْ رُغمَتْ أُنوفٌ ... مُغالبةً وإنْ ذلَّتْ رقابْ
وإنَّ مُقامَ مِثلي في الأعادي ... مُقامُ البدرِ تنبحُهُ الكِلابْ
رمونيي بالعيوبِ مُلفَّقاتٍ ... وقد علموا بأنِّيي لا أعابْ

كان الشريف الرضي الى جانب ما يحمله من اباء وعزّة وشمم . موصوفاً بالعفّة والورع والتدين . ووصف أيضاً بالجود والخدب على قومه ومن اتصل به من الناس(١٠٥٩) . وسمت مكانته . وعلت منزلته عند الخاصة والعامة . وقد أمر بهاء الدولة البويهي أن تكون مخاطباته بعنوان : الشريف الأجل . ثم خلع عليه لقب الرضي . وشغل منصب نقابة الطالبيين . والنظر في المظالم . وامارة الحج . والنظر

الناس(١٠٥٩) . وسمت مكانته . وعلت منزلته عند الخاصة والعامة . وقد أمر بهاء الدولة البويهي أن تكون مخاطباته بعنوان : الشريف الأجل . ثم خلع عليه لقب الرضي . وشغل منصب نقابة الطالبيين . والنظر في المظالم . وامارة الحج . والنظر في أمور المساجد بمدينة السلام .

عاصر الشريفُ الرضي ثلاثة خلفاء : المطيع لله . والطائع لله . والقادر بالله . قضى من عمره أربع سنوات في عهد المطيع . وثمانية عشر عاماً في ظل الطائع . وخمسة وعشرين عاماً من مدة حكم القادر وكان في عهد المطيع طفلاً . أما في عهد الطائع (٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ) فكان شاباً يافعاً . وكانت علاقته به طيبة ولا سيما بعد أن أطلق سراح والده من السجن الذي وضعه فيه عضد الدولة تنفيذاً لخطته في القضاء على مَنْ يخشى بأسهم على ملكه . وحينما جاء القادر الى الخلافة لم تنقطع صلته بدار الخلافة . بل قدّم مديحه لهذا الخليفة وكسب رضاه . وكانت له صلات ببعض الأمراء والوزراء بحكم مكانته في أسرته . فمن الأمراء شرف الدولة وبهاء الدولة البويهيين . ومن الوزراء الصاحب بن عبّاد . وعبد العزيز بن يوسف .

(١٠٥٨) ديوانه ١ : ١٢٧ .

(١٠٥٩) ينظر المنتظم ٧ : ٢٧٩ . شرح نهج البلاغة ١ : ٣٢

وكان الشريف الرضي ـ على كثرة مشاغله ـ دؤوباً في التأليف والتصنيف . وقد ترك آثاراً جليلة وقيمة(١٠٦٠) . من أهمها : حقائق التأويل في متشابه التنزيل . وتلخيص البيان عن مجازات القرآن . ومجازات الآثار النبويّة . وخصائص الأئمة . ونهج البلاغة . وديوان شعره .

توفي الشريف الرضي يوم الأحد السادس من شهر المحرم سنة ٤٠٦ للهجرة . ورثاه ثلاثة شعراء كبار : الشريف المرتضى . والوزير أبو القاسم الحسين بن علي . ومهيار الديلمي .

شعره :

كان الشريف الرضي شاعراً فصيحاً . كما كان كاتباً مترسلا . وإماماً في النحو واللغة والتفسير . قال الشعر بعد أن جاوز العشرين من سني عمره بقليل كما ذكر الثعالبي(١٠٦١) . واستمر في نظمه طيلة حياته . وكانت آخر قصيدة له في رثاء صديقه أحمد بن علي البتّي في شعبان سنة ٤٠٥ للهجرة . أي قبل وفاته بعدة أشهر . وقد صنع ديوانه أبو حكيم عبد الله بن ابراهيم الخيري (ت ٤٧٦ هـ) مرتباً على الأغراض . فجعل باباً للمدح . وباباً للافتخار وشكوى الزمان . وباباً للمراثي . وباباً للنسيب . وباباً للفنون المتنوعة . ورتب القصائد في داخل كل باب على القوافي حسب حروف الهجاء . وقد عدل مَنْ جاء بعد أبي حكيم الى ترتيب الديوان كله حسب حروف الهجاء .

أخذ المديح قسطاً وافراً من شعره . خصّصه للكثرين من أفراد أسرته . وأصدقائه . وأرباب السلطة وأصحاب السلطان . وقد جاء بعضه خالياً من الصدق . وإن ظهر في اطار فخم مجمّل بحلّية الألفاظ . وقد اعترف الرضيُّ نفسه بأنه كان يُهذّبُ خواطره في مدح اللئام . فتأتي المعاني مُغلّفةً بثوب الصدق . ولعله فعل ذلك دريئةً من أذى المتسلطين على الحكم آنذاك .(١٠٦٢) .

أهذّبُ في مدح اللئام خواطري ... فأصْدُقُ في حُسن المعاني . وأكذبُ

عباد وسواهم . ومن أصدق مدائحه وأخلصها ما قاله في أبيه الحسين . وخاله أحمد بن الحسين وفي صديقيه الحميمين أبي اسحاق الصابي . وأبي الحسن أحمد بن علي البتّي الكاتب.

إن أكبر حادثة أثرت في نفسه أبلغ الأثر سجن ابيه في بلاد فارس(٣٦٩ـ٣٧٥هـ) ومصادرة أملاكه . فراح يمدحُ هذا الأب بقصائد كثيرة . وهي تنقسم الى ثلاث طوائف . الطائفة الاولى في التوجُّع لأبيه وهو سجين . والطائفة الثانية في تهنئة أبيه بالخلاص ورد أملاكه اليه . وطائفة الثالثة في تهنئته بالأعياد بعد أنْ لانَ الزمانُ . ولكل طائفة من هذه الاشعار خصائص . فالطائفة الاولى تُصور الحزن والجزع والتفجع . والثانية يغلب عليها الإنفتاح والإنشراح . والثالثة تخلع على أبيه رداء الملوك ؛ فهو يدخل عليه في كلِ عيد بقصيدة كما يصنع الشعراء في تحيّة الخلفاء والملوك(١٠٦٣) . وكانت أول قصيدة قالها في مدح أبيه مطلعها :(١٠٦٤)

نُصافي المعالي . والزّمانُ معاندُ ونتهضُ بالآمال . والجَدُّ قاعِدُ

تقع القصيدة في ثمانية وسبعين بيتاً . وهي – وإن كان الرضي في أول نظمه للشعر – جيدة في عرض معاناة الألم والغربة بعد غياب والده . وقد تحدّث في بعض أبياتها حديث الحكماء ،

ينالُ الفتى مِن دهره قَدْرَ نفسه وتأتي على قدرِ الرجالِ المكابدُ
فدىً لكَ يامجدَ المعالي وبأسها فِعالُ جبانٍ شجعتهُ الحقائدُ
فما تركت منك الصوارمُ والقنا ولا أخذتْ منكَ الحسانُ الخرائدُ
عُزِلتَ ولكن ماعزلتَ عن الندى وجودك في جيد العُلى لكَ شاهدُ

وحينما أطلق سراحهُ . وبارحَ السجن . ووصل الى بغداد . رآه وخفق قلبهُ . وانهلت مدامعه فرحاً . وقابله بقصيدة تنشح بالسرور . منها قوله :(١٠٦٥)

(١٠٦٣) ينظر عبقرية الشريف الرضي ١ : ١٠٩
(١٠٦٤) ديوانه ١ : ٢٠٥ .
(١٠٦٥) ديوانه ١ : ٧٧

مِازالَ مِنكَ على النائباتِ مقامَ عظيمٍ ويومَ عصيبُ
فيومَ حسامكَ فيه الخطيبُ ويومَ لسانكَ فيه الخطيبُ
طلبت لنفسكَ . فاطلبْ لنا من العزّ . انَّ المحامي طلوبْ
وان كنتَ تأنفُ عن حُبهِ فانَّ العلاءَ الينا حبيبُ
وما نحنُ أنتَ . وكلُّ الى دعاء العُلى طربٌ مستجيبُ

انه يريد جاه أبيه لحريقاً الى « العز » . يريد نصيبه الخاص منه . لانَّ عز الأب ليس ملكاً للابن . وقوله « وما نحن أنت » وهو في السابعة عشرة من عمره يدلُّ على نحو من الشعور بالاستقلال الذاتي يحسن بنا أن لا نغفله(١٠٦٦) .

انّ شخصية الرضي بارزة في مدائحه . تظهر شامخة أبية . تطلب العزّ والرفعة . مثل قوله من قصيدة في مدح الصاحب بن عباد :(١٠٦٧)

فاني رايتُ السيفَ أنصرَ للفتى اذا قال قولاً ماضياً أو توعّدا
أرى بين نيلِ العزّ والذلّ ساعةً من الطعنِ تقتادُ الوشيجَ المقصّدا
فمن أخرتهُ نفسُهُ مات عاجزاً ومن قدّمتهُ نفسُهُ مات سيّدا
اذا كان إقدامُ الفتى ضائراً له فما المجدُ مطلوباً ولا العز مفتدى

ان فخره بنفسه . وزهوه بمقامه وشعره وشجاعته وفروسيته ومضاء عزمه وقوة ارادته . كثير في شعره . ولعل قصيدته الحماسية الآتية خير دليل على ذلك . ومطلعها :(١٠٦٨)

ومطلعها ،(١٦٥)

نبهتمْ مثلَ عوالي الرماحْ الى الوغى قبل نموم الصّباحْ
فوارسٌ نالوا المنى بالقنا وصافحوا اعراضهم بالصّفاحْ

ومنها :

وخطةٍ يضحكُ منها الرّدى عراة تبري القومَ بريَ القداحْ
صبرتُ نفسي عند أهوالِها وقلتُ، من هبوتها لا بُراحْ
إما فتىً نالَ العُلى فاشتفى أو بطل ذاقَ الردى فاستراحْ

---

(١٦٦) ينظر الشريف الرضي للدكتور احسان عباس ص ٧٧
(١٦٧) ديوانه ١ ، ٢٨١
(١٦٨) ديوانه ١ ، ٢٥٩

وقد أحسن الدكتور زكي مبارك في قوله : « ان هذا القصيد خليق بأن يكون نشيد الفتوة العربية . وأهلٌ لأن يحفظه جميع الشبان في سائر البلاد العربية . فهو جذوةٌ من الفتوة . وقَبَسٌ من الرجولة . وشهابٌ من العزم المصمم الذي يطيح المصاعب والأهوال »(١٦٩)

كان الشريف الرضي يعتزُّ بقومه ويفخر بأرومتهم ،(١٧٠) ويريد لهم السمو والمقام الرفيع . ويُسمّي نفسه « الفتى العربي » . كما ورد في المقطوعة الآتية :(١٧١)

اني لأكرمُ نفسي أنْ يقالَ جنى على الفتى العربيّ الخردُ العُرُبُ
اني على شغفي بالحبّ معتذر من أن يقال شجاعٌ فلّهُ الوصبُ
إنا معاشرٌ لاتبلى مطارفنا الاّ وهنّ لطلاب الندى سلبُ

انه يريد من الفرد العربي أن يكون شجاعاً ماضياً مثل سيفه كي لاينكره الاجداد الذين عرفوا بالشهامة والاقدام والنبل والغيرة :(١٧٢)

اذا عربي لم يكن مثلَ سيفه مضاءً على الاعداء أنكره الجدُّ

وترى الشريف الرضي ـ وان كان نزّاعاً الى المجد ـ يصبو الى الجمال ، ويتغزل بالمرأة الحسناء بقلب رقيق . قال الباخرزي ، « له شعر اذا افتخر به أدرك من المجد أقاصيه ، وعقد بالنجم نواصيه ، وانا نسب انتسب الرقة الى نسيبه ، وفاز بالقدح المعلى من نصيبه » (١٧٣) .

انّ غزله الجميل المتمثل بقصائده المعروفة بالحجازيات(١٧٤) في غاية الرقة والعذوبة ، « قالها في أماكن لايحلُّ فيها الرفثُ ولا الفسوقُ . وقالها وهو نقيب الأشراف وامام الحج ، لكنه نفّس بها عن نفثات صدر اضطربت فيه العواطف ، وجاش بها وبفورانها فما استطاع لها كتماناً . فأرسلها ترانيم تحلّت بصفاء الروح وسمو العاطفة ، ففقر له معاصروه هتافه للجمال واشادته بصبوات نفسه ولوعات هواه »(١٧٥) .